

(1)

مفهوم المواطنة والانتماء وواجبنا تجاه السائحين والزائرين والمقيمين

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وبعد :

فقد جُبل الإنسان بفطرته على حب الوطن والانتماء إليه ، يشترك في هذا جميع الناس على تنوع أعراقهم واختلاف مشاربهم ، ولأن الإسلام هو دين الفطرة والإنسانية فلم يقف في وجه هذا الميل الطبيعي بل أقره ورغب فيه وحضَّ عليه ، وجعله سبيلاً لزيادة التماسك بين أبناء الوطن الواحد .

وقد اقترن حب الوطن في القرآن الكريم بحب النفس ، فقال تعالى : { وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ } ، فليس غريباً أن يشعر الإنسان بالحنين الصادق لوطنه عندما يُغادره إلى مكانٍ آخر ، فما ذلك إلا دليلٌ على قوة الارتباط وصدق الانتماء للوطن .

وهذا ما حثت عليه الشرائع السماوية ، وأكدته ديننا الحنيف ، ولعلَّ خير دليلٍ على ذلك : ما أعلنه نبينا (صلى الله عليه وسلم) عن حبه ووفائه لوطنه مكة المكرمة ، وهو يغادرها مهاجراً إلى المدينة ، فعن ابن عباسٍ (رضي الله عنهما) قال : قال رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : (مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدَةٍ وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ ، وَلَوْ لَا أَنْ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ) ، وفي رواية : أنه (صلى الله عليه وسلم) وقَّفَ

(2)

عَلَى الْحَزْوَرَةِ - موضع بمكة - فَقَالَ لِمَكَّةَ : (عَلِمْتُ أَنَّكَ خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ) .
ألا ما أروعها من كلمات عبر بها النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) وهو يودّع وطنه فكشفت عن عظيم حبه لوطنه ، وتعلّقه الكبير به لما له من مكانة في نفسه ، فمكة هي الأرض التي ولد ونشأ وشبّ فيها ، وتزوَّج فيها ، وله فيها (صلى الله عليه وسلم) ذكريات لا تُنسى ، فالأوطان ذاكرة الإنسان .

إن حقيقة المواطنة هي انتماء الإنسان إلى وطنه الذي يعيش فيه ، وأرضه التي تربي عليها وترعرع في خيراتها ، وهي ليست مجرد علاقة بين فرد أو جماعة وبين الدولة وحسب ، ولكنها دعوة إلى التمتع بالحقوق ، وأداء الواجبات ، والعيش ، والتعامل المشترك من خلال المشتركات الإنسانية بين جميع أبناء الوطن الواحد على اختلاف ألوانهم ، وأجناسهم ، ومعتقداتهم ، وثقافتهم .

ولقد تجسّد مفهوم المواطنة من خلال وثيقة المدينة التي كانت بمثابة الدستور الأول المنظم للعلاقات بين البشر ، والتي تعد أفضل نموذج في فقه التعايش السلمي بين البشر جميعاً على اختلاف أديانهم وأعراقهم ، فحققت نجاحاً على أرض الواقع ، فحينما هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة وجد بها مزيجاً إنسانياً متنوعاً من اليهود والوثنيين والمشركين ، فلم يقم (صلى الله عليه وسلم) بعزلهم عن المجتمع أو إقصائهم أو المصادرة على عقولهم ، وإنما دعاهم إلى الإسلام، فمن أبى منهم الدخول فيه ؛ ترك له النبي (صلى الله عليه وسلم) حرية الاعتقاد ، مع توفير الأمن والأمان له ، ومعاملتهم معاملة إنسانية كريمة ، والواقع خير شاهد على أن الدول والشعوب التي أرست قيم المواطنة والتزم أفرادها بما عليهم

(3)

من واجبات وتمتعوا بما لهم من حقوق في إطار التعايش السلمي هي أكثر الدول أمناً وأماناً وتقدمًا اقتصاديًا وعلميًا وتحقيقًا للاستقرار والعدل ، وأن الدول التي دخلت في فوضى الصراعات الدينية ، أو العرقية ، أو القبلية ، أو المذهبية ، واشتعلت فيها نيران العصبية قد ذهبت إما إلى تفكيك وانقسام وقتل وتشريد ، أو إلى سقوط لا قيام منه.

على أن المواطنة تتضمن حقوقًا وواجبات : فمن حقوقها :

* **حرية العقيدة والعبادة** وممارسة الشعائر الدينية لكل أبناء الوطن الواحد ، فقد أعطى الإسلام لكل إنسان الحرية في اختيار الدين الذي يعتقد به ويؤمن به ، دون إكراه أو إجبار ، وأساس هذه الحرية قوله تعالى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } ، ويقول سبحانه: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } .

* **كذلك من حقوق المواطنة : المحافظة على الدماء والأموال والأعراض ،**

والمتمثل في جوهر الشريعة الإسلامية ليلحظ بوضوح أنها قد جاءت لتحقيق مصالح العباد بالأمن والاستقرار ، فالأمن على الحياة مطلب إنساني أكد عليه الإسلام حتى مع غير المسلمين ؛ لذا جعل الله (عز وجل) قتل نفس واحدة بمثابة قتل للناس جميعًا ، فقال تعالى: { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا } ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَيُّمَا رَجُلٍ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ ،

(4)

ثُمَّ قَتَلَهُ ، فَأَنَا مِنَ الْقَاتِلِ بَرِيءٌ وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا) ، والأمر لا يقف عند حد القتل المادي فقط ، بل يشمل أيضًا القتل المعنوي في شتى صورته وأشكاله ، سواء كان ذلك بالإذلال ، أم بالقهر والتعذيب ، أم بسلب الحرية ، أم بغير ذلك من الصور . وقد نهى الشارع عن أكل أموال الناس بالباطل لحرمتها ، فأوجب قطع يد السارق ، حفاظًا على المال من الضياع والسرقة ، وحذر الأمة من أن يأكل بعضهم مال بعض ، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ } .

وكذلك حفظ الشارع للأعراض لحرمتها فأوجب صيانتها ، وتوعد المخالف باللعنة فقال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ، ويقول سبحانه في شأن الخوض في الأعراض : { إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ يَا فَأُوْاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ } ، كذلك نهى الشارع عن الاقتراب من الفاحشة ، فقال تعالى : { وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } .

* ومن حقوق المواطنة أيضًا : **العدل والإنصاف بين أبناء الوطن الواحد** في ضوء أسس المواطنة المتكافئة والتعايش السلمي واحترام الحقوق والواجبات المتبادلة تجاه الوطن والمواطن ، وقد جاء الإسلام بحفظ الحقوق وصيانتها لتحقيق العدل المأمور به ، قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى } ، وقال تعالى: { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } ، والإنسان مطالب بأن يعدل حتى مع أعدائه ، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ } .

(5)

وكما أن المواطنة تمنح المواطنَ حقوقاً فإنها تلزمه ببعض الواجبات ، منها :
* **التضحية من أجل الوطن** ، فالتضحية من أجل الأوطان علامة على حبها ،
وحب الوطن ليس كلاماً ، أو ادعاءً ، أو مجرد شعاراتٍ رنانةٍ ، إنما هو فطرةٌ صادقةٌ
تظهر في إخلاص العمل ، والتضحية بكل غالٍ ونفيسٍ .

على أن للتضحية صوراً متعددة ، منها : التضحية بالنفس ، وهي أعلى وأعلى
صور التضحية من أجل المحافظة على الأوطان ، فحراسة الأوطان والدفاع عنها
واجب شرعي وضرورة وطنية عدّها الشرع من أفضل الأعمال عند الله (عز وجل) ،
وقد بشر النبي (صلى الله عليه وسلم) حراس الوطن الذين يضحون بأنفسهم دفاعاً
عن الوطن بقوله : (عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ
تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .

وجدير بالذكر أن هناك فرقاً بين التضحية بالنفس في سبيل الدين والوطن وبين
من يفجر نفسه لإيذاء الآخرين ، فليس هناك شرع يبيح أو يجيز ذلك ، فمفجر نفسه
سواءً أصاب غيره أم لم يصب منتحر ، يعجل بنفسه إلى الهلاك في الدنيا والآخرة .

* **كذلك من واجبات المواطنة : العمل الجاد المثمر** ، واستثمار ثروات الوطن
من أجل تحقيق نهضته وازدهاره ، ولن يتحقق ذلك إلا برجال مخلصين قادرين ،
يشاركون في تشجيع الاستثمار ، وتنمية المجتمع ، وفي الوقوف بجانب الفقراء
والمحتاجين ، فهذا واجب وطني ومطلب شرعي يتحتم عليهم أن يقوموا به ، قال
تعالى : {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ} ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (... وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ
فِي عَوْنِ أَخِيهِ ...) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ اللَّهُ أَنْفَعَهُمْ

(6)

لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تُطْرِدُ عَنْهُ جُوعًا...).

* ومنها : تقديم مصلحة الوطن العامة على المصلحة الخاصة والمشاركة في المحافظة على أمنه واستقراره ، والتصدي بحزم لكل حملات التخريب والإفساد ، وهذا لا يكون إلا بوحدة الصف والهدف وأن نكون جميعاً على قلب رجل واحد ، قال تعالى : {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...} .
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين .
أخوة الإسلام :

إن الانتماء للوطن يحتم على المواطن الوفاء بكل حقوقه وعهوده وموآثيقه وقوانينه ومن أهمها : الحفاظ على كل من دخل بلدنا سائحاً ، أو زائراً ، أو مقيماً ، لأن الإذن الذي يحصل عليه بدخول بلدنا إنما هو بمثابة عهد أمان وضمن من أن يؤذى أو يعتدى عليه بأي نوع من أنواع الاعتداء ، وأن الاعتداء على أي من السائحين ، أو الزائرين ، أو المقيمين ، إنما هو خيانة دينية وطنية وجريمة نكراء .
ونؤكد أن السياح والمقيمين لهم جميعاً أمان الله وأمان رسوله (صلى الله عليه وسلم) وأمان الوطن ، ولهم حق الحماية الكاملة ، وأن الاعتداء على أي منهم قولاً أو فعلاً أمر يرفضه الشرع الحنيف ويجرمه القانون ، ويستوجب أشد العقوبات ، فقد أمرنا الله تعالى بالوفاء بالعقود ، فقال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } ، وقال سبحانه :

(7)

{وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ}، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ إِلَّا شَرْطًا حَرَمَ حَلَالًا ، أَوْ شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا) ، وتوعد النبي (صلى الله عليه وسلم) كل من خالف ما عاهد الناس عليه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) فيما يرويه عن رب العزة سبحانه : (ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ).

ومن ثم فإن التعامل مع السائحين والمقيمين والزائرين لبلادنا ينبغي أن يكون بالحسنى ، مع وجوب حمايتهم وكف الأذى عنهم ، لأن الخروج على ذلك إنما هو خروج على مقتضيات الشرع والوطنية والإنسانية السوية.

نسأل الله العظيم أن يؤمننا في أوطاننا ، وأن يحفظ بلادنا من كل سوء ، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً.